شـــعر الزواج (*)

للأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل

لعل « شعر الزواج » على هذا النهج موضوع جديد ، فإذا كان لكل جديد غرابة ، فقد تزول الغرابة بالبيان

يتناول الشاعر ، وسائر أهل الفنون ، حوادث حيواتهم بالشعر والتعبير . والزواج من أهم حوادث الحياة . فإذا تزوج شاعر يحسن الشعور بالزواج فكيف لا يكتب القصيد فى حياته الزوجية ؟ ! وإذا اقترن موسيقار فلماذا لا يشدو بقرانه ؟ .

ويباح للشاعر وصاحب الفن الجميل الغزل بالفتاة الضبيحة ، حتى نسب إلى أبي بكر الصديق أنه تغزل فقال[1] :

أمن طيف سلمى بالبطاح الدمائث
أرقت ، أو أمرٌ فى العشيرة حادث ؟

وحتى أنشد كعب بن زهير النبى محمداً عليه الصلاة والسلام شعراً بدأه بالغزل على عادة العرب فقال :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

فهذا الغزل بالفتاة مباح للشعراء فكيف بالزوجة ؟ ! إن الزوجة أحق بالغزل . ومن الغزل لائق وخليع . فالزوجة غزل لائق مهذب

هذا النقص فى شعر الزواج يسترعى النظر . فهل وجد معظم الشعراء وأهل الفنون زوجاتهم تافهات ؟ فإذا فرضنا هذا فإن لكل جديد فرحة ولو كان تافهاً . على أن الزوجة التافهة قد لا تظهر تفاهتها سريعاً . والناس يختلفون فى غنى الشخصية . فقد تفرغ شخصية بعد أيام من الصحبة وتفرغ أخرى بعد أشهر ، على حين تفرغ أخرى بعد أعوام ، وغيرها لا تفرغ أبداً ما عاشت ثم بعد الممات . ففى فجر الحياة الزوجية تحس النفس المعبرة بتحية صادقة لهذى الحياة الجديدة . هذا منطق الشعور ، وتلك طبيعة الإحساس . فإذا ما جاشت النفس وسطر القلم المواطف ثم بدت الزوجة تافهة عز على صاحب الفن وأد فنه . هنا يجب التفريق بين فن صادق وشيء خادع ألمعه . فهذا (شلى) كتب قصيدة رائعة فى فتاة باهرة السطوح بائرة الدخائل ، ظهر زيفها قبل أن تتم القصيدة ! راحت فرحة الشاعر ، وضاع أمله ، وعراه الخجل ، وشابه الكدر ، ومع ذلك أبقى على القصيدة وعاشت وخلدت وعلى رأسها إهداء تبطنته سخرية الحق من فطنة الإنسان !

فى الحق أن نقص شعر الزواج يسترعى النظر !

لقد آن أن يكون أدب دارى جنب ذاك الأدب الطليق من كل قيد اجتماعى . آن إنصاف الخليلة . آن أن ينصف الشعراء أنفسهم من ظنة حب ما لا يملكون ومقت ما يملكون لأنهم يملكونه كما يكثر بين البلداء والجهلاء والعامة

* * *

والزواج نصيب عند شعراء أوربا فى الأساطير والشعر الكلاسيك . غير أنه نصيب غير كاف وغير شامل عند شاعر واحد فيما أعلم

وله نصيب عند المثقفين

فمن الأساطير هذه القصيدة :

« أخيراً أقاما بيتاً كريماً ، ظلة منزلية ، والعرش غير بعيد من الأرض ، مصنوع من القصب والقش معاً . عاش هناك بوسيس وفيليمون[1] ، وهناك عاشا زوجين طويلاً ، وزوجين سعيدين : والآن هما فى الحب قديمان ، مع أن ذخرهما ضئيل ، ... والأمر عدم ، حيث تبودل الحب المتكافئ ، أو الأصح أن كليهما أمر ، وكليهما أطاع ...

« هكذا حينئذ نظر رب الأرباب نظرات هادئة قائلاً : تعن يا واحد الرجال عدلاً ؛ وأنت يامرأة وجدت وحدها جديرة بمثل هذا الرجل فى رباط زواج ...

« همسا هنيهة ؛ عندئذ كلما (جوف)[2] هكذا يفضل فيليمون دعاء وسألها . ولأن أى عمل فى حياتنا لم يدنسه النزاع الأهلى ، نسأل ساعة موت واحدة : فلا هى تبكينى بدموع

(*) مقدمة لكتاب ظهر حديثا عنوانه « أظاريد زقاف » للأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل . وسيكون هذا الكتاب موضع تعليق من الرسالة فى عدد قادم .

(١) هناك من ينكر صحة نسبة هذا الشعر إلى أبي بكر رضى الله عنه . على أن الناظم العربى كان إذا لم يشبب عن صدق شبب عن تقليد

(١) Baucis و Philfmon

(٢) Jove

الأرملة إذا عاشت لتدفنني ، ولا أنا بذراعين واهنتين أحمل بوسيسي الهامدة إلى القبر يا كيا

« وأشارت رؤوس الرب موافقة »

إلى أن قال بعد تحولهما معاً إلى شجرتين مورقتين :

« . . . سنديانة فارعة قرب زيزفونة تنموان . . . »[1]

ومن الكلاسيك :

تزوج لورد تنيسون باميلي شلوود ، و « كان الزواج من كل النواحي ناجحاً ، وكان الشاعر يقول فيما تلا من حياته : حين تزوجتها نزل سلام الله على حياتي »[2]

وقد نظم تنيسون شعراً عنوانه (صباح القران) جاء فيه :

« هنا للحب الخاتم الذهبي ، كل اختطابي قد فُعل » إلى أن قال :

« لأن هذا للحب الصباح الذهبي ، وأنت نجم صباحه » حتى قال : « قلبي ، أأنت كافي العظمة لحب لا يكل ! أيها القلب ، أأنت للحب كافي العظمة ؟ فقد سمت بأوراد وأشواك »

وقد كان لورد تنيسون حيياً شديد الحياء ، وكان من الأرستقراط

اقترن شلي بهريت وستبروك ، وبعد عامين نظم فيها قصيدة عنوانها « مساء . إلى هريت » ختمها قائلاً : « كذلك كان حبك يا هريت . هل استطاع إطارة أفكار كل ما يجعل عاطفته عزيزة ؟ وينشد تقوباً في نسيج سعادتنا الموصول عائداً بغير حس من مسك الدافىء ؟ »[3]

وختم قصيدته « إلى أيانب » : « وأنت عزيزة أكثر حين تبدي خصائصك اللطيفة رسم جمال أمك »[4]

ثم اقترن بماري جدوين ، ومضت سنوات ثلاث فنظم فيها حينئذ يقول بعنوان « إلى ماري شلي » :

« الدنيا موحشة ، وأنا تعب من تطويق بدونك يا ماري ؛

« كان في صوتك وبَسْمك من قبل فرح . وقد ذهب ، يا ماري ، حين وجب ذهابي كذلك[5] »

ونظم (إلى ماري شلي) يقول : « ماري العزيزة ، أين ذهبت وخلفتني وحدي في هذي الدنيا الموحشة ؟ في الحق هنا شخصك ـ شخص جميل ـ لكنك فررت منحدرة في الطريق الموحش المؤدي إلى أظلم منازل الشجن ... ...[1] »

وله غير ذلك في الزواج قصيدة متبوعة ولكنها عامة السياق وليست في زواجه

وكان شلي « جاداً على العموم ، وكان مع ذلك قديراً على المزاح وكان كامل الأدب الذي هو طابع الأرستقراط الصغير[2] »

وكان على حياء العذارى ، يتورد وجهه من المقابلات أحياناً .

ومن المثقفين :

القائد الكبير الأرستقراطي فون هندنبرج ، يقول في سيرته :

« وجدت في زوجتي صاحبة محبة قاسمتني بلاء ودون ملل مسراتي وأحزاني ، ومهامي وأعمالي[3] »

* * *

كذلك الزواج نصيب في الموسيقى الأوربية الكلاسيك .

فقد ألف الموسيقار تشرد شتراوس « السيمفونية الأهلية »[4] و « السيمفونية الأهلية إحدى كبريات قصائد شتراوس السيمفونية . وتمثل يوماً في حياته هو وقرينته وابنه الطفل[5] »

وألف الموسيقار يوهان شتراوس « فالزاً » سماه « أجراس القران »[6] أيام عرسه

أما نصيبه عند العرب فضئيل ، وهو على ضآلته شتيت

قال الحسين عليه السلام في امرأته الرباب وابنته سكينة وقد عاتبه أخوه الحسن عليه السلام في امرأته :

لعمــــرك إنني لأحب داراً تحل بهـا سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جـــل مالي وليس للائمي عندي عتاب[7]

وقال الحسن بن هانئ يحكي عن زوجته :

تقول التي من بيتها خف مركبي: عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت لهـا واستعجلتها بوادر جرت فجرى في جريهن عبير

وهنا نموج فنذكر من مراثي الزوجات والأزواج ، فإنه غزل حزين

---

(١) Ovid, Metamorphoses Trans. John Dryden

(٢) Everyman's Encyc V. 12, p. 90

(٣) و (٤) Poems written in 1819

(٥) Poems written in 1819

(١) Poems written in 1819

(٢) André Mraucis, Ariel, p. 106, Penguin

(٣) Hindenburg, Out of my Life, p. 40, Cassell, 1933

(٤) "Sinfonia Domestica,,

(٥) Essays in Musical Analysis, Donald Français Tovey, Reid professor of music in The University of Edinburgh, VIII, p. 206, Oxford

(٦) Wedding Bells

(٧) ج ١ ص ٢٢ ؛ العمدة ١٩٣٤ ، ج ١ ص ١٨٤ ، وج ٢ ص ١٢١ ، الحيوان

قال الوزير الشاعر محمد بن عبد الملك الزيات فى زوجته حين ماتت :

يقول لى الخلان : لو زرت قبرها ... فقلت : وهل غير الفؤاد لها قبر ؟
على حين لم أحدث فأجهل قبرها ... ولم أبلغ السن التى معها الصبر

وقال جرير فى قرينته :

لولا الحياء لماجنى استعبار ... وزرت قبرك والحبيب يزار

وقال الإمام علىّ فى عقيلته السيدة فاطمة كريمة النبي وهو على قبرها :

قَلّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورقّ عنها تجلدى

و « رَثَت » الرباب بنت امرئ القيس زوجها الحسين عليه السلام حين قتل فقالت :

إن الذى كان نوراً يستضاء به ... بكربلاء قتيل غير مدفون
سبطَ النبي ، جزاك الله صالحة ... عنا وجنّبْتَ خسران الموازين
قد كنت لى جبلاً صعباً ألوذ به ... وكنت تصحبنا بالرحم والدين
من لليتامى ومن للسائلين ومن ... يغنى ويأوى إليه كل مسكين
والله لا أبتغى صهراً بصهركم ... حتى أغيب بين الرمل والطين[1]

والشعر العربى الحديث مقصر فى هذا الباب . وهاهم أولاء جل أعلامه المتزوجين : البارودى وصبرى وشوقى وحافظ وولى الدين والزهاوى وشكرى والمازنى[2] قد خلت دواوينهم من شعر الزواج الشخصى

ولا تثريب على كل شاعر عزب

أما البارودى فقد تأهل مرتين فلم يستقبلها بالقريض ولم يترنم بالزوجتين بعد ذلك . ولكنه رثى الأولى رثاء كأنه غزل حزين وكانت الوفاة بمصر والرثاة بسرنديب . وهذه أبيات مجموعة منها :

لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يدى ... تقوى على رد الحبيب الغادى
كم بين عاديّ تعلى عمرَهُ ... حقباً ، وبين حديثةِ الميلاد !
سر يا نسيم فبلغ القبر الذى ... يحمى الإمام تحيتى ووداد
لاتحسبينى ملت عنك مع الهوى ... هيهات ، ماتركُ الوفاء بعادى

وأما الأستاذ المازنى فحين كان ينظم لم يكن لقرينته نصيب من نظمه ، فلما هجر الشعر كان لها من نثره أكبر نصيب ؛ وكان النظم والتناول الشعرى أولى بهذا الحديث ! وهو مع هذا يقول عن نفسه : « ... ومن متناقضاتى أنى على حيائى أرانى فى كثير من الأحيان ثقيل الصراحة[1] »

أستطرد من هذا إلى علمين من أعلام الأدب هما الدكتور هيكل باشا والدكتور طه بك ، فهما وإن لم يطرقا الموضوع فقد طرقا هامشه طرقاً خفيفاً . ذلك أن الدكتور هيكل تحدث عن قرينته فى كتابه « ولدى » ، وأن الدكتور طه قال عن قرينته يخاطب كريمته : « لقد حنا يا بنتى هذا الملك على أبيك فبدله من البؤس نعيما ، ومن اليأس أملاً ، ومن الفقر غنى . ومن الشقاء سعادة وصفواً[2] » وذكر كيف تعرف إليها وكيف كان أثر صوتها فى نفسه[3]

ثم أعود إلى حديث الشعر فإنى قرأت قصيدة « ليلة الزفاف » للأستاذ إبراهيم العريض ، وهى قصيدة « من وراء الستار » كما قال ، فإنه فصل فيها تفصيلاً ختمه بقوله : « فضمها شوقاً لأحشائه[4] »

ثم قرأت قصيدة « عيد ميلاد سعيد » للأستاذ العوضى الوكيل[5] قال فيها :

يا زوجتى ، يا هواى ، يا أملى ... قلبى بمعنى سناك محشود
من منذ عشرين غير واحدة ... ومعدن الفن فيك موجود

ولكن أين الخطبة وما تلاها إلى « عيد الميلاد » عند الوكيل ؟ وأين ما قبل ليلة الزفاف وما بعدها عند العريض ؟

فإذا جاز لى أن أمازحهما قلت : ألم يعجب الأستاذ العريض من الزواج غير ليلة الزفاف ؟ ... وهل كفى الأستاذ الوكيل نفسه شر غلاء الحرب فى هدية العيد فأهدى القصيد ؟ ...

وهكذا لم أجد شاعراً نظم الشعر فى حياته الزوجية أو نثره ، فشمل بشعره تلك الحياة . وقد وجدت الشعراء المجيدين الذين لا أثر للزوجية فيما رثموا !

فى الحق أن نقص شعر الزواج يسترعى النظر

عبد المجيد مصطفى خليل

(١) الحسين ، طبعة ١٣٤٩ ، ج ٢ ص ٢٣٣
(٢) أما الأستاذ مطران وجبران والأستاذ العقاد ، فكذا على ترتيب مولدهم ، فلم يتزوجوا . والمهدة فى مطران وجبران على الشيخ يوسف البستانى صاحب مكتبة العرب

(١) مجلة العزبة ، العدد الثانى سنة ١٩٤٠ (٢) الأيام
(٣) بعض أعداد مجلة الهلال (٤) مجلة الرسالة ، س ٧ ، ٩٠٧ ، سنة ١٩٤٠
(٥) مجلة الرسالة ، العدد ٣٧٧ ، سنة ١٩٤٠

حكم بتغريم محمد متولى شلبى البقال بباب الشعرية بالقضية ن ٢٣٨ تسعيرة سنة ١٩٤٠ استئناف ن ٩٧٣٧ بجلسة ٣٠ سبتمبر جنيهاً واحداً لبيعه ملحاً بأزيد من التسعيرة .